المدينة الخالدة

سلامٌ على روما عروسِ الحواضر ... بما وَرِثتْ طولَ القرون الغوابرِ
طوافى هنا لا فى المكان وانما ... بجوف زمانٍ ذاهبِ الغور داهر
هنا حيثما انْساقَتْ خُطاى معالمٌ ... تحدِّث عن ماضٍ من المجد دابر
خرائبُ تَسْتَعدى الجلالَ على البلى ... وتُزْهى بمطموسٍ من الفن داثر (١)
جواثمُ إلا أنها فى مُجثومها ... تَنُصّ جبيناً مُشْخَناً غيرَ صاغر (٢)
بقايا أساطينٍ فُرادى مُنيفةٌ ... جِلادٌ على الأيام غيرُ خوائر (٣)
تُطل على الأنقاض حول نِصابها ... وكل العلا فى نِقْضها المتناثر (٤)
لها روعةٌ فى النفس تُشعر أنها ... محاريبُ ربٍّ أو قصورُ قياصر
بيوتُ عباداتٍ ودورُ سيادةٍ ... بابهما ذلت جباهُ الجبابر
لقد دثرتْ ، لم يحْمِ ربٌّ بناءه ... فأهْوى وما لاقى مُقيلاً لعاثر
سوى معبدِ الأرباب جمْعاً كأنما ... أفاد القوى من سرّها المتضافر (٥)
عظيمٌ من البنيان كالطود راسخٌ ... يخِفُّ من التَّنْسيق خفَّةَ طائر
له قبَّةٌ رَوْحاءُ ينفذ أوْجُها ... إلى القبة الكبرى بتدبير ساحر
وثَمَّةَ ألطافٌ وآثار نَعْمةٍ ... شواهدُ عيشٍ رافهِ الظل ناضر
وأطلالُ حَمَّامٍ عَفَت عَرَصاته ... وكانت عِباقاً بالطّيوب العواطر (٦)
وجَفَّت حِياضٌ فيه كانت رَوِيَّةً ... يُساق إليها الماءُ فوق القناطر (٧)
كم ازدهتْ أحواضُه وأريكُه ... بأبناء روما المترفين انسوادر
وثمة بين الرَّبْوَتَيْن بَلاقعٌ ... هى السُّوق كانت ندوة للتشاور (٨)
ذكرنا عليها رَأْىَ شَيْخٍ مُحَنَّكٍ ... وقولَ خطيبٍ ذى شَقاشِقَ هادر
وكانت حِمى رأيٍ ومَرْقى بلاغةٍ ... ورمزاً لحق الشعب عند الأباطر

وأجداثُ أقيالٍ تهيّبها البلى ... وسَبْيُ مِسلاّتٍ جلائب جائر (٩)
وصِنْوٌ لأهرام الفراعين يقتدى ... بمصر، ولكن فى قوام البحاتر (١٠)
وأسوارُ آطامٍ وشُمٌّ معاقلٍ ... تَدَرَّعُ للعادى بصبرِ مُصابر
وأعمدةٌ قد كان تمثالُ ربِّها ... على رأسها سَحْبان تلك المنابر (١١)
وأقواسُ نصرٍ خلّدت جنباتها ... على الصخر ما أملى رواةُ البشائر (١٢)
لكمْ مرت الأجنادُ تحت عقودها ... خِفافاً بأعلام النسور الكواسر
كتائبُ جرّارٍ يَصِلّ سلاحُها ... وترفع بالإنشاد هوجَ العقائر
مردّدةُ الأبواقِ تُعلن نصرَها ... وثمَّ هتاف الشعب ملءُ الحناجر
وفى الصدر منها مَركَبُ النصر عالياً ... كبرجٍ من الأبريز أفرهَ سائر (١٣)
تجرره الأفراسُ من كلِّ مُحْضِر ... لدى السبق، هملاجٍ لدى العرض خاطر (١٤)
تجلّى عليه ذو جبينٍ مكلّلٍ ... له فوق عرش العاج جِلسةُ ظافر
يروع بوجهٍ أحمر الصبغ مشرقٍ ... يُخال سناه وهج شمس الهواجر
وحُلّتُه من أرْجوانٍ وعسجدٍ ... وزينتُه من دُمْلُجٍ وأساور
وبين يديه يَعرض النصرُ سوقَه ... غنائمَ حربٍ فى العجال المَواقِر (١٥)
وتمشى حفاةً فى السلاسل رُسَّفاً ... أساراه مثلَ الهَدْى صوب المجازر (١٦)
مواكب تجتاب المدينة كلها ... تطوف نواحيها طواف مُفاخِر
وتفضى — وللشكران عُقبى مطافها — ... إلى معبدٍ فى ذروة الطود كابر (١٧)
وما أنْس لا أنْس الملاعب شادها ... عواهلُ روما نزهةً للخواطر (١٨)
ونزهتهم فيها صراعُ عبيدهم ... وإعتاق أسراهم بحزِّ المناحر
وطرْحُ النصارى للسباع تشفياً ... لأرباب روما من تمرّد ثائر
ملاعبُ قد دكّ الزمانُ صروحها ... أوائلها قيد البلى كالأواخر
سوى ملعبٍ أبلى الليالى مناعةً ... وشَقَّ على أرجائهنَّ الدوائر (١٩)
تعالى طباقاً آزجٌ فوق آزج ... يزاحمن أبراج النجوم الزواهر (٢٠)
قد انفسحت أقطارُه وتحلقتْ ... مقاصيرُه ترعى عرين القساور
إذا بثت القمراءُ فيه ظلالها ... ورقّت به أنفاسُ هوج زوافر

تخال به أبناءَ روما وغيدها ... مهللةً تلهو بدامى المناظر
ولكن دوراً قد رعى الدهرُ عهدها ... وإن عُطِّلتْ فيها عتاقُ المشاعر
علتها يدُ الانسان بالمقت والقِلى ... وجبَّ اختلافُ الدِّين عقْد الأواصر
سباها الألى ارتادوا الدَّياميس مفزعاً ... وباتوا وموتاهم ببطن مغاور (٢١)
وغادرها الدينُ الجديدُ لربِّه ... وبيعاته الكبرى رُكامَ محاجر (٢٢)
كنائسُ قامت للمسيح مقامها ... وتاهت بقُبَّات لها ومنائر (٢٣)
وجدَّتْ فنونٌ طبَّق الأرض صينها ... تجلَّى بها فنُّ الثقات العباقر (٢٤)
فهارُبَّ حيٍّ صوّروه تخاله ... وأنفاسُه كالحيِّ ملء المساحر
يُزاد من التَّجسيم فضْل ضلاعةٍ ... وروعة تأثيرٍ وفتنة فاخر
فأعْجِبْ بأطياف الأساطير حيَّةً ... على سقفِ محرابٍ هنالك غائر (٢٥)
ويومٍ عصيبٍ للحساب كأنه ... حقيقةُ حسٍّ لاخداع نواظر (٢٦)
وشِبْهِ لموسى لا محالة ناطق ... بتمثاله ، بادى الجلالة آمر (٢٧)
شديدِ القُوى وافى الشَّطاط مؤرَّبٍ ... له بأسُ جبَّارٍ وبِنْيةُ حادر
وحقٌّ كليم الله فى الطُّور أن يُرَى ... — بما دُكَّ منه الطورُ — صُلْب المكاسر
عجائبُ فنٍّ قد أتيح لربِّه ... — على فضل هذى — فضلُ بانٍ وشاعر
لقد جمعوا أطراف كلِّ صناعةٍ ... وأوتوا على التكوين قدرة قادر
شخوصُ تماثيلٍ وبِدْعُ زخارفٍ ... وإعجازُ تصويرٍ وسحرُ عمائر
على كل ميدانٍ وفى كل مفْرقٍ ... تقوم الدُّمَى فى حفْلها المتكاثر
وتنْثر هُولاتُ الفساقيِّ ماءها ... بتصْنيع مُفْتنٍّ وصنعة ماهر (٢٨)
أضافوا إلى غُرِّ الأعاصر عصرهم ... وعصرهم فى الفن زَيْنُ الأعاصر
كذا أنت يا روما جماعُ ذخائر ... وتاريخُ أكوانٍ وسِفْرُ مآثر
كذا أنت أمٌّ للحضارات تنطوى ... حضارةُ ماضٍ فى حضارة حاضر (٢٩)
وردتك مشتاقاً إلى الفن ظامئاً ... وعدتُ على شوقى بنغْبة طائر
سجلُّك مسْجورٌ وفنُّك باذخٌ ... عميقٌ ؛ فما توفيكِ زوْرةُ زائر
تلعَّبْتُ لو أنى وزوجى هُهنا ... ولكن زوجى فى عقالِ المقابر

ضجيعة أرضٍ طاول النجم مجدُها ... وأنتِ جنينٌ فى غيوب المقادر (٣٠)
لقد طفتُ يا روما ربوعك موحداً ... فياحسنها لو كان زوجى مجاورى
أرانى على الأطلال أطول وقفةً ... وأمعن تسريحاً لفكرى وناظرى
أراعى إلى قدس المعابد أصبحت ... مدارج أقدامٍ ومجرى حوافر
وأربابُها صرعى التماثيل ضيَّعٌ ... وكانت ترجّى فى الخطوب الكبائر
وأحنو على آى الجمال تناثرت ... حصًى أو بقايا فى ضمان الجبائر
رسومك يا روما القديمة عبْرةٌ ... لأرمل ملتاع الجوانح عابر
مصارعُ مجدٍ شامخ الشأو نادر ... ومدْفنُ حسن معْجز الصنع باهر
تأسيتُ يا روما بهذى جميعها ... وإن تك أوثاناً بمحراب كافر
تأسيت بالأرباب لاقت حتوفها ... ولم تنْجُ من سهم الردى المتواتر
تأسيت يا روما ولو بعض ساعة ... فلستُ على رغم الهوى بمكابر

عبد الرحمن صدقى

---

(١) تستعديه : تستعين به وتستنصره .
(٢) تنص : ترفع .
(٣) الأساطين : الأعمدة .
(٤) نصابها : أى قاعدتها التى تقوم عليها .
(٥) معبد الأرباب جمعاً : البانثيون Pantheon ومعناه كما تقدم « معبد جميع الآلهة » . وكان بناؤه بأمر الامبراطور الرومانى أجريبا فى أواخر العهد الوثنى ولا يزال حتى اليوم موفور الكيان قائم الأركان .
(٦) كثرت هذه الحمامات فى عهد الأباطرة وأشهرها حمامات كاراكالا .
(٧) قناطر الماء : قنوات فوق حنايا يساق عليها الماء إلى المدينة من العيون الدافقة فى التلال القريبة . ويبلغ ارتفاع بعض هذه القناطر نحو مائة قدم ويزيد طولها على ستين ألف متر .
(٨) الربوتان هما ربوة البالاتين وربوة الكابتول (من التلال السبعة التى تقوم عليها مدينة روما) وكانت بينهما السوق العامة الرومانية وهى مركز الحياة الاجتماعية والسياسية قديماً . وقد استجد الأباطرة بعدها اسواقاً مثلها ، وكان آخر هذه الأسواق سوق تراجان بين ربوة الكابتول وربوة الكويرينال .

(٩) نذكر من الأجداث ضريح أدريان وهو أسطوانى الشكل على قاعدة مربعة وكان بناؤه بأمر الامبراطور سنة ١٣٥ قبل الميلاد ليكون مدفناً له ولمن يخلفه ، ويعرف الضريح الآن باسم صرح سان أنجلو Castel Sant' Angelo . والمسلات التى سباها الرومان هى المسلات المصرية التى نقلها أباطرتهم إلى روما وهى قطعة واحدة من الصوان ، ومنها المسلة القائمة فى ميدان الشعب وارتفاعها فوق الثلاثة والعشرين متراً ، وكذلك المسلة القائمة فى ميدان كنيسة بطرس وارتفاعها أربعة وعشرون متراً . وكانت هذه وتلك قائمتين بمعبد الشمس فى هليوبوليس . وفى روما مسلات أخرى من صنع الرومان محاكاة للمسلة المصرية ولكنها دونها ولا تبلغ فى الارتفاع مبالغها .

(١٠) الهرم المشار إليه هرم كايوس تشتيوس Caius Cestius من الرؤساء الرومان وكانت وفاته سنة ٤٣ قبل الميلاد ولا يزيد ارتفاع هذا الهرم على ٣٧ متراً وهو بناية من الآجر يكسوها الرخام .

(١١) من هذه الأعمدة عمود الامبراطور تراجان وعمود الامبراطور مارك أوريل ، وكلاهما أقيم تذكاراً لما أحرزه هذا وذاك من النصر على الأعداء ، وكان على قمة كل عمود تمثال صاحبه . فلما صارت الغلبة للمسيحية جعل البابا مكان تراجان ومارك أوريل الامبراطورين تمثالى بطرس وبولس القديسين .

(١٢) أشهر أقواس النصر أقواس تيتوس وسيڤير وقنسطنطين وعليها جميعاً نقوش تمثل انتصاراتهم .

(١٣) الابريز : الذهب الخالص . الأفره : البين الفراهة وهى خفة الحركة .

(١٤) المحضر : الشديد الجرى . الهملاج : الحسن السير فى سرعة وبختزة .

(١٥) عجال : جمع عجلة وهى التى تحمل عليها الأثقال . مواقر : جمع موقر وموقرة أى مثقلة .

١٦) الهدى : ما أهدى إلى الحرم من النعم لنحره . وكان الأسرى يقتلون فى مطبق تحت المعبد عقب انتهاء الموكب .

(١٧) هو معبد على صخرة الكابتول ويعرف بمعبد جوبيتر الكابتولى حامى روما .

(١٨) كثرت هذه الملاعب فى الدولة الرومانية ، وهى أميل إلى الشكل الاهليلجى منها إلى الاستدارة . والملعب ساحة تسمى بالعرين Arena حولها المدرجات . وأهم ما كان يعرض فى العرين صراع المجالدين Gladiator فيما بين بعضهم وبعض أو فيما بينهم وبين السباع .

(١٩) هو الملعب الفلافى المعروف بالكولوسيوم Colosseum وقد شرع فى بنائه الامبراطور ڤسبازيان فى سنة ٧٢ ميلادية ، وأتمه خلفه تيتوس وافتتحه عام ٨٠ ويتسع هذا الملعب لنحو خمسين ألف بن النظارة ولا تزال معالمه قائمة .

(٢٠) الآزج : جمع أزج وهو البيت يبنى طولا .

(٢١) الديناميس : جمع ديماس وهو الحفير تحت الأرض . والديناميس فى روما كثيرة ، وهى سراديب اتخذها النصارى مدافن لموتاهم ، وكانوا يوغلون فى حفرها أطباقاً تحت أطباق لغلاء الأرض عليهم فى ذلك الحين ، وكانوا يحفرون فى جانبى كل سرداب لحود الموتى . ولما

كان الرومان يرعون حرمة الموتى فقد التجأ النصارى إلى هذه الديناميس أثناء اضطهادهم فى القرن الثالث الميلادى لاحياء دينهم فى غياباتها .

(٢٢) الدين الجديد أى النصرانية . البيعات جمع بيعة وهى الكنيسة .

(٢٣) الكنائس فى روما لا يحصيها العد ، ولا غرو فهى كرسى البابوية والعاصمة الكبرى للمسيحية . وأعظم هذه الكنائس كنيسة القديس بطرس ، وتعد قبتها أعظم ما أخرجه فن العمارة فى عهد التجديد وهى من تدبير الفنان الأشهر ميكائيل أنجلو ، ولعل أجل ما فى الكنيسة تمثال الورع للفنان نفسه .

(٢٤) من هذه الفنون الجديدة التصوير بالزيت ويمتاز بسرعة جفافه . وقد جعلوا فى مبدأ أمرهم يصورون بالزيت على لوحات الخشب (ومن ثمة تسميتهم الصورة باللوحة) ثم عدلوا إلى القماش . وكان التصوير قبل ذلك بالألوان المحلولة فى الماء أو فى مح البيض أو فى الشمع ، ويعرف التصوير القديم بالتصوير الطرى Affresco لأنه لا يكون إلا على سطح مجصص لم يجف طلاؤه بعد . ويضاف إلى ذلك عناية المتأخرين بدراسة نظرية المنظور الهندسى ومراعاتها فى التصوير .

(٢٥) ذلك المحراب أمر ببنائه البابا سستو الرابع Sisto IV ويعرف بالمحراب السستينى Cappella Sistina وعلى سقفه تهاويل لميكائيل أنجلو تمثل روائعها أساطير من التوراة من سفر التكوين .

(٢٦) صورة يوم الحساب الأخير على جدار المذبح فى صدر المحراب من تصوير الفنان نفسه وقد استوحاها من أوصاف دانتى أعظم شعراء الطليان للجحيم فى الكوميديا الالهية .

(٢٧) هذا التمثال من صنع الفنان نفسه وهو موجود بكنيسة القديس بطرس المكبل بالحديد San Pietro in Vincoli .

(٢٨) الهولات جمع هولة : كل ماكان غريب الخلقة .. وهى تشير هنا إلى مايزين الفساقى من تماثيل غريبة الخلقة كالخيلان (نصفه إنسان ونصفه سمك) وكأفراس الماء وجراذين الماء وغيرها من الحيوانات الخرافية وآلهة البحر فى الأساطير الوثنية .

(٢٩) كانت لايطاليا زعامة الحضارة مرتين : أولاهما قبل المسيحية فى العهد الرومانى القديم ، والأخرى بعدها فى عصر النهضة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

(٣٠) إشارة إلى مصر وحضارتها أقدم الحضارات .